

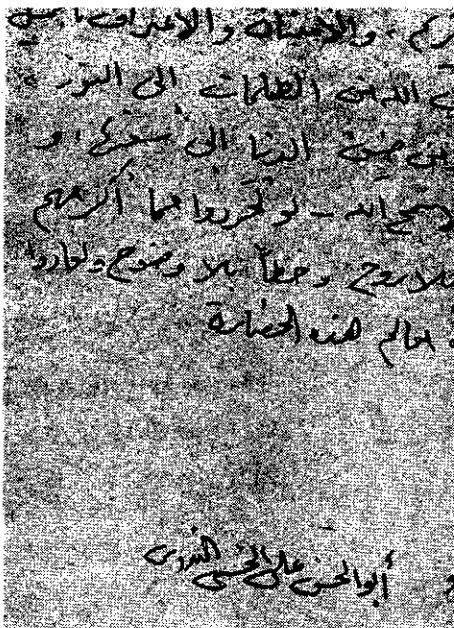
علماء ومفكرون عراقيون

محاتر العجزي

أبوالحسن الندوبي

دار الشروان للنشر والتوزيع

www.dawahmemo.com



A

السَّعْدُ عَلَى أَبْوَ الْمُحْسِنِ النَّذْرِيِّ

ولد في قرية (تكية) من مديرية (رأي بيلاي) من الولاية الشمالية بالهند ، وذلك في المحرم من عام ١٣٣٢ هـ . من أسرة ذات أصل عربي عريق ، تعيش في الهند منذ قرون . وهو ابن العلامة الشريف عبد الحي الحسني أحد كبار مؤلفي عصره .

كان أول من هاجر إلى الهند من هذه الأسرة الشيخ السيد قطب الدين ابن محمد المدني عام ٦٠٧هـ. وكانت أم هذا الشيخ بنت الإمام الشيخ عبد القادر الجيلاني، ويصل نسبة من الطرفين إلى السيد عبدالله المغضب بن السيد الحسن المثنى ابن الحسن بن علي بن أبي طالب (رض).

وكان سبب هجرته إلى الهند أنه رأى في منامه رسول الله ﷺ بالمدينة النورة يأمره بالتوجه إلى الهند للجهاد، ويبشره بالفتح المبين.

وقد حافظت الأسرة طوال القرون على فضائلها الموروثة والمكتسبة ، إذ عرفت بالتزام السنن الواضح من التوحيد والسنّة والوقوف بوجه البدعة والحرص على مبادئ الدعوة إلى الإسلام . وقد شارك رجاؤها في الجهاد ونال الكثير منهم شرف الشهادة في سبيل الله .

ونبغ من هذه الأسرة عدد من العلماء والدعاة سجلت أسماؤهم ولا تزال تسجل في تاريخ الدعوة الإسلامية والكفاح من أجلها ، من أشهرهم السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد ، قائد كبرى حركات الإصلاح والجهاد في الهند .

ولا ريب أن لهذا المنبت الكندي أثره العميق في نشأة الشيخ وانصرافه التام إلى خدمة الإسلام والاهتمام بأمور المسلمين . وقد شاء الله أن يحفظ للمترجم هذا الجو الفاضل فأتم نعمته عليه بالشيخ الصالحين ، الذين كانوا امتداداً طيباً لتلك البيئة الطيبة .

دراسته العلمية :

تلقي الشيخ دراسته الأولية في العربية من الشيخ خليل محمد البانوي ، حفيض الحديث الجليل الشيخ حسين بن محسن الانصاري ، وأتم دراسته الأدبية على الدكتور محمد تقى الدين الهلالي ، رئيس تدريس الأدب العربي بندوة العلماء يومئذ ، ثم تعلم في دار العلوم ندوة العلماء ودار العلوم في ديويند ، وجامعة لكتشنو ، بتقى عمتاز ، والتحق بمدرسة الشيخ أحمد علي في لاہور حيث تخرج عليه في علم التفسير .

وقد استفاد في الحديث من الشيخ حيدر حسن خان ، وثال الإجازة منه ومن الشيخ عبد الرحمن المباركفورى صاحب (تحفة الأحوذى) وحضر دروس العالم الكبير الشيخ حسين أحمد المدنى في الحديث بدار العلوم في ديويند ، فجمع بين جهابذة الأدب والحديث والتفسير .

الرجال الذين أثروا في توجيهه :

ويسمى الشيخ من الرجال الذين أثروا في توجيهه أخاه المرحوم الدكتور عبد العلي الحسني ، ويصفه بأنه جمع بين الثقافتين الدينية والعصرية ، إذ تلقى دراسته في المدارس الدينية والجامعات العصرية . وأنه كان ذا فضل كبير على ثقافته .

ثم المشايخ أحمد علي اللاهوري والشيخ محمد إلياس مؤسس حركة الدعوة والتبلیغ بالهند وفي العالم الإسلامي، ثم المربى الجليل الشيخ عبدالقادر الرائبوسي، ثم شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال، ثم السيد طلحة الحسيني أحد كبار الأساتذة في جامعة البنجاب.

ويبدع الشيخ أثر هؤلاء الفضلاء دون تحديد، فلا يعلمنا في أي اتجاه، ولا من أي نوع، ولكن ذلك لا يحجب عنا الواقع الذي نعرفه من خلال آثار الشيخ، ومن خلال مسلكه في خدمة الدعوة، ثم من خلال ما اشتهر به بعض الذين نعرف آثارهم من أساتذته هؤلاء.

وفي ما كتبه الشيخ أبو الحسن عن روائع إقبال وأفكاره الإسلامية وتأملاته الفلسفية ما يكفي لاستخلاص الصورة المنشودة عن تأثيره في توجيهه الأدبي والفكري.

وقد صارى القول في ذلك أن أبوالحسن قد وفق من ملابسته لهذه الثلة المتازة إلى أن يجمع بين الثقافة الصحيحة والأسوة الحسنة. وإنها لبقية من منهج التعليم الإسلامي، الذي لا يقبل التفويق بين التعليم والتربية، ذلك المنهج الكريم الذي مسخه، بل نسخه، نظام التعليم الغربي، حتى أوشك أن يستحبيل أثراً بعد عين – وبالأسف – !

العلوم التي يؤثرها :

ويحدد العلوم التي يؤثرها بحسبه فيحصرها في : القرآن الكريم، والحديث الشريف، ثم التفسير، والتاريخ، والأدب.

ولو سكت الشيخ عن هذا الجانب لأمكنتنا استخلاصه من مؤلفاته ومحاجاته ومحاضراته وأحاديثه. وقد يقال :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارنة يقتدي
ولا قرين أعمق أثراً في قلب الإنسان وعقله وسلوكه من العلم الذي ينسجم

معه ويصدر عنه . ونحن بقليل من الممارسة واللاحظة نفرق بين أمرىء وآخر عن طريق الحديث الذي نسمعه أو نقرؤه لكل من الاثنين . وقارئ أبي الحسن لا يفوته الإدراك بأنه ثمرة مونعة من حديقة الثقافة الإسلامية الأصيلة .

ثم إن الشيخ يجمعه بين هذه العلوم المتعددة في نطاق التفضيل ، إنما يفعل ذلك إيماناً منه بما يشلها من وحدة الإطار ، فهو « لا يؤمن بالانفصال بين هذه العلوم ، بل يرى كداعية إسلامي أن التاريخ مرآة الأمم البائدة » ، وخزانة العبر المبرزة لأسباب النهوض والهبوط في حياتها ، فليس ثمة من سقوط أو هبوط يحدث عفواً أو اتفاقاً ، وإنما هي سن وقوانين مرتبطة بتصرفات الأمم وأعمالها ، فعلى هذه التصرفات والأعمال تتوقف مصائرها في مسيرة التاريخ » .

وعلم القرآن والحديث ، فضلاً عن كونه المصدر الرئيسي والمتابع الأول للثقافة الإسلامية ، فهو كذلك الدليل الهادي إلى أسرار هذه السنن الإلهية وعملها في حياة البشر ، وكل منهج لدراسة التاريخ لا يستمد من هذه الضوابط سيظل جهداً ضائعاً ينقض بعضه بعضاً .

والتمكن من علوم الأدب والتعمرس به أداة لا معدى عنها لإبراز هذه الحقائق والإفادة منها على أفضل الوجوه .

والشيخ ، بارك الله في حياته وجهاده ، قد علم كيف يستخدم هذه الأدلة في خدمة مثله العليا أروع استخدام . ومتبع ما يكتب يشعر بأن لعيارته الأدبية سحرأ لا يتوافر في العادة إلا للعلنة من أصحاب المawahب ، الذين تعمقوا سر الكلمة ، وتفاعلوا بها ، وكان لقولهم أكبر الأثر في ما يصوغون . وتلك هي الخاصة الرئيسية التي يتاز بها أبداً أولو الأذواق الروحية من المتخريجين في مدرسة القرآن .

وبهذه الخاصة يتناول الشيخ الأحداث التاريخية ، فإذا هي مائجة بالحياة وبالعبر .. وقلا تقرأ له بحثاً أو قصة أو حديثاً لا تلمس أثناءه هذه الصور الناطقة بالحكمة ، وهذا ما يكاد الكتابون عنه يجتمعون عليه .

أم الأحداث التي عاصرها :

ويعتبر الشيخ سقوط الخلافة على يد الطاغية اليهودي الأصل أناتورك أكبر الأحداث التي عاصرها ، فهو يقول في ذلك : « أعتقد أنه كان نقطة تحول في تاريخ الإسلام وال المسلمين ، وتحولًا لموجة الحياة ، إذ كان له الأثر العريق في خصوص العالم لحضارة الغرب .

ومهما تكن عوامل هذا التحول فمن جرائه تم إسلام قيادة المسلم للغرب ، حيث لا يزال العالم الإسلامي يقاسي تبعيته . ثم كانت الأحداث القاسية التي واجهتها الأمة الإسلامية نتيجة لهذا الحدث المؤلم ، فالحرارة الكمالية والثورة (....) إنما تستمدان جذورهما من الأرضية التي خلفها المستعمر ، فاعتبرها امتداداً لهذه المؤامرة » .

ويتحدث أبو الحسن عن بعض الفتن التي فجّرها فيما بعد تلك الكارثة فيقول : « إن الحروب التي تلت هذه المأساة الإنسانية ، وغزو الفكر الغربي للأمة الإسلامية ، وجراة الحاقدين عليها ، إنما حصلت بسبب من رجحان كفة ميزان القوة ، وانسحاب المسلمين من معترك الحياة . وقد امتدت هذه المؤامرة ، التي اقتلعت جذور الوحدة المتأصلة في قلب العالم الإسلامي ، إلى العهد الأخيرة .. وكان يوم احتلال اليهود القدس ، وزحف القوات الصهيونية إلى الضفة الشرقية للقناة ، أحلك يوم في حياتي . لقد تحققت المجزرة ، وبلغت المؤامرة ذروتها . وقد بحثت ذلك في مؤلفاتي ، وأوضحت الأسباب التي تخضبت عنها المأساة الإسلامية الكبرى بعد سقوط الخلافة ، بإبعاد الإسلام ورابطته عن الحياة ، والاستخفاف بقيمه ومظاهره ، وقمع العاملين في سبيله . وإنني أعد هذه الفترة من أحرج الفترات التي عشتها ، كما فصلت ذلك في كتابي « الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية » و « المسلمين وقضية فلسطين » وقد دعمت هذه الأحداث إيعانى بأن الإسلام لا بد أن يتولى الزمام لإنقاذ العرب والعالم ، لأن الحل الوحيد للأمساة الإنسان يمكن من في تحول قيادة العالم إلى أيد مؤمنة

بقيم الإنسانية ، أمة وسطاً لتكون شاهدة على الناس ، كما يصفها كتاب الله » .

وقد يتساءل القارئ - ومن حقه ذلك - كيف يعد أبو الحسن سقوط الخلافة أكبر حادث في حياته ، وهو في سن المراهقة أثناء ؟

والجواب على ذلك بالنسبة إلى الشيخ أنه يقين الحادث على مجريات الأحداث التاريخية ، التي شهدتها الحقبة المتقدة حتى أيامنا هذه ، فلا يرى أكبر منه فيسائر الواقع العالمية .

ثم إن لتقدير الشيخ هذا الحدث على هذا الوجه علاقة هامة ب موقف مسلمي الهند أثناء ذلك من موضوع الخلافة . فالمعلوم أن هؤلاء كانوا أشد مسلمي العالم حرضاً على بقاءها ودفاعاً عنها وألموا عليها . وقد وصل بهم ذلك الحرص إلى حد أن الانجليز ، وهم المسيطرة على أرجاء الهند ، قد عجزوا أن يجدوا في مسلميها من يقبل التطوع في صدوفهم لقتال الدولة العثمانية ، أثناء الحرب الكونية الأولى ، لأنها في يقينهم تمثل الخلافة التي لا يجوز لسلم الخروج عليها ، حتى اضطرب الإنجليز لتوسيط زعماء العرب - الذين استباحوا التحالف معهم ضد الخلافة - لإقناعهم بما يريدون فلم يجدوا منهم إلا الصد والنقد وتوجيهه أخطر الاتهام ، فعادوا من وساطتهم تلك مخففين بخفي حنين .

فمن الطبيعي إذن أن ينشأ كل مسلم هندي عاصر تلك المأساة على هذا النحو من الشعور بهولها . فكيف إذا كان مثل هذا الفتن الناشيء في أشد بيئات المسلمين الهندود إحساساً بتلك الفاجعة ! ..

وجاءت الأحداث تترى في أعقاب هذه المحن ، فإذا هي أرzaء متلاحقة تدمر كل رابطة بين المسلمين ، حتى ل تستحيل الأسرة الواحدة أحزاها وشيعاً كل حزب بما لديهم فرحة !

نشاط الشيخ في خدمة العلم :

وتجاوز الشيخ الصديق مضمون السؤال الثامن عن أم الأحداث ، التي قد تكون عرضت لفضيلته أثناء عمله في التدريس ، مكتفياً بأنه لا يذكر من ذلك ما يستحق الذكر .

وعن مدى نشاطه في خدمة العلم وطلابه يشير إلى بعض مجهوداته في (مكافحة الغزو الفكري) ، وبث روح الاعتزاز بالاسلام في المسلمين ، وبخاصة طبقة المثقفين والشباب ، ومقاومة الردة وآثارها ...)^(١) .

وهذه المجهودات مما يدركه كل قارئ ، لكتب الشيخ في مختلف أنحاء العالم ، سواء بلغاتها الأصلية أو المترجمة ، فليس ثمة كتاب له إلا وهو توكيد لهذا الاتجاه الاصلاحي على أرفع المستويات .

ومع ذلك فقد أغفل الجواب جانباً هاماً من نشاط أبي الحسن في خدمة العلم وطلابه ، فلم يشر مثلاً إلى آثاره في ندوة العلماء ذات الماضي العريق في إذاعة العربية ، وفي توضيح حقائق الاسلام ، سواء في قلوب طلاب الندوة ، أو عن طريقهم بعد التخرج بين جاهز المسلمين ، في مختلف مواطنهم من شبه القارة الهندية .

الشيخ والندوة :

ومن جيل الاتفاق أن أكتب هذه الأسطر باللاذقية - حيث أقضى إجازة الصيف - في حين يحتفل العالم الاسلامي بالمهرجان الذي نظمته ندوة العلماء في الهند ما بين ٢٥ و ٢٨ شوال ١٣٩٥ هـ. لمناسبة مرور خمسة وثمانين عاماً على إنشائها وبهذه رسالتها العالمية ، فكانت فرصة سعيدة للتلاقي رجال الفكر الاسلامي من المعنيين بقضايا التربية والتعليم ، وشد ما كنت حريصاً على

(١) ورد في جواب الشيخ على هذا الاستطلاع نقاط هامة رأينا إرجاعها إلى السؤال ١٢ .

المشاركة فيها استجابة لدعوة كريمة ، لو لا أقدار حكمة صرفني إلى اللاذقية بدل (لكرنثو) . وليس ثمة من ريب في أن تدفق وفود العالم الإسلامي أثناء ذلك المهرجان ، إنما ينطوي خلال تكريمه لتلك المؤسسة المرموقة ، على تقدير كبير لجهود ذلك الشيخ الفاضل ، الذي تسلم رايته ، فكان خير خلف لأولئك السلف الذين نهضوا برعايتها على مدى تلك العقود التسعة من السنين ..

لقد أحسن الأستاذ سعيد الأعظمي التدوين في مقالة الذي صدر بها العدد الخاص بتلك المناسبة من جريدة (الرائد) تحت عنوان « في رحاب المهرجان »، إذ أبرز ما لا يجهله خبير من فضل أبي الحسن ففيقول :

« الشيء الأصيل الذي كان يعمل في المهرجان ويعمل في كل ما يتصل به أولاً وآخرأ هو ذلك القلب الواسع الكبير الذي يخنق في جنب سماحة أستاذنا العلامة السيد أبي الحسن علي الندوبي . فلو لا عبقريته العميقة ، ونظرته الواسعة ، وفهمه الدقيق .. وفوق ذلك إيمانه الراسخ القوي ، وإخلاصه في خدمة قضيائنا الإسلام ، وتقانيه في حب الله ورسوله ، عن دراسة وتفقه .. فلو لا ولولا هذه الصفات العالية لم يكن لهذا المهرجان أي قيمة أو أهمية . ولو لا لما كان له أثره البعيد في تاريخ التعليم والتربية في هذه البلاد بوجه خاص ، وفي العالم الإسلامي بصفة عامة .

ليس من سعادة الهند أو ندوة العلماء فحسب أن يوجد فيها مثل هذا الرجل العظيم الخلص المؤمن ، بل أن وجوده سعادة لتاريخ العلم والثقافة والتعليم والتربية ، وصفحة ناصعة في سيرة العلماء الأعلام والدعاة العظام . وأن العالم المعاصر لفي أمس الحاجة إلى أمثاله حتى يتبعن هداه في مسيرة العلم والمدنية ، ويُعيّن خطاه في زحمة الصراعات والاتجاهات التي تتوّج بها المجتمعات الإنسانية اليوم » .

ولا مبالغة في هذا الاطراء لذلك العامل الجليل الذي - كما قال شيخ الأزهر الدكتور عبدالحليم محمود في تلك المناسبة - «أخلص وجهه لله، وسار في حياته

سيرة المسلم الخلص لله تعالى ورسوله ﷺ فدعا إلى الإسلام بالقدوة الحسنة ، ودعا إلى الإسلام بكتبه النقية ، ودعا إلى الإسلام بسياحاته التي حاضر فيها ووجه وأرشد . فجزاه الله خير ما يحيز عالماً عن دينه » .

ولا جرم فقد اطلع الله على إخلاص هذا العبد الصالح – ولا تزكي على الله أحداً – فبارك في مساعديه ، وبارك في مواعذه ، وبارك في حاضراته العديدة الغور ، الغنية بالحقائق ، التي يلقاها هنا وهناك ، في الهند ، وفي البلاد العربية ، وفي إنجلترا .. وفي مختلف المؤتمرات الإسلامية ، التي لا ينفك يشارك فيها ، ويتسافر إليها ، مضحياً براحتة ، ومغامراً بصحته ، فأكرمها سبحانه بالرضوان والقبول ، حتى صارت المؤود العذب لناشدي الحق .. لأنه لا ينشد من وراءها شهرة ولا منفعة .. ولا شيء إلا ابتغاء رضوان الله .

وأنا لا أذيع مجهولاً من حياة الشيخ عندما ذكر أنه ، وهو العضو الدائم في المجلس الاستشاري للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، لم يقبل أن يصرف له فلس واحد من المكافآت السخية المخصصة لمنه ، ولم أعرفه نزل فندقاً قط على حسابها ، على تعدد المرات التي حضر فيها اجتماعات هذا المجلس حتى الآن . وأنا لا أدرىكم في علماء الإسلام من نظير لهذا الزاهد الكبير !

إن خاصة الزهد والترفع عن حطام الدنيا ، في هذا الجسد التحليل اللطيف ، الذي يكاد ينطوي بقول ابن الرومي عن نفسه :

أنا من خف واستدق فما يُيشَّ
 ـ سِيلُ أرضاً ولا يسد فضاءَ

هذه الخاصة هي التي مكنت له في مضمار الاصلاح والنقد الاجتماعي ، فلا يهادن باطلًا ، ولا ينكتم حقيقة .. وجعلت لكلامه مساغاً في الأسماع فلا تنكر عليه ما يقول .

وهو كالشيخ ابن باز في حسن تأثيره عند توجيه النصيحة الواجبة ، يطرق بها

أبواب القلوب في أسلوب من الحكمة والوعظة الحسنة ، لا يسخط ولا ينفر ، ولتكنه يبعث على التأمل والتدبر والتفكير .

عالمية الشيخ :

والإشارة إلى مشاركة الشيخ في عضوية المجلس الاستشاري للجامعة الإسلامية بالمدينة منذ تأسيسها ، توجه الذهن إلى مشاركته في العديد من المنشآت العلمية الأخرى .

إنه عضو مراسل في بجمعى اللغة العربية بدمشق والقاهرة . وهو مؤسس الجمع العلمي الإسلامي بالهند ورئيسه ، كما أنه يرأس المجلس التعليمي لولاية (أثر بردلش) هناك ، وهو عضو في المجلس التنفيذي لمهد (ديوبند) ، ومن أعضاء المجلس التنفيذي لدار المصنفين في أعظم كرية بالهند أيضاً .

والشيخ أحد رؤساء التحرير لمجلة (معارف) تلك المجلة العلمية الأكاديمية المسلمين في شبه القارة الهندية .

هذا وقد أخرج الجمع الإسلامي بالهند سلسلة من ترجمات كتب الشيخ باللغة الإنجليزية تعميمًا لفوائدها ، وسيق مجلة الجمع اللغوي بدمشق أن نشرت عدة فصول من آثاره .

وهذه المشاركات الواسعة إنما تؤكد الصفة العالمية لهذا الرجل ، الذي أجمع على تقديره رجال الفكر من مختلف الأقطار .

عمله في التأليف :

وإلى القارئ هذه القائمة بأشهر مؤلفاته المطبوعة :

- ١ - مختارات في الأدب العربي (وهو من المقررات الدراسية في كثير من المدارس والجامعات) .
- ٢ - القراءة الراسدة (ثلاثة أجزاء) .
- ٣ - قصص النبيين للأطفال (خمسة أجزاء) .

- ٤ - مذكريات سائح في الشرق العربي.
- ٥ - حديث مع الغرب.
- ٦ - روائع إقبال.
- ٧ - الأركان الأربع.
- ٨ - الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية.
- ٩ - ربانية لا رهبانية.
- ١٠ - المسلمين في الهند.
- ١١ - إذا هبت ريح الإيغوان.
- ١٢ - رجال الفكر والدعوة في الإسلام.
- ١٣ - القادياني والقاديانية.
- ١٤ - إلى الإسلام من جديد.
- ١٥ - المسلمين وقضية فلسطين.
- ١٦ - الطريق إلى المدينة.
- ١٧ - النبوة والأنبياء في ضوء القرآن.
- ١٨ - الصراع بين الإيمان والمادية.
- ١٩ - تأملات في سورة الكهف.
- ٢٠ - العرب والإسلام.
- ٢١ - النبي الخاتم.
- ٢٢ - ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين.
- ٢٣ - السيرة النبوية.
- ٢٤ - نحو التربية الإسلامية الحرة في البلاد الإسلامية.

وهذه الكتب نشرت كلها بالعربية ، وترجم معظمها إلى مختلف اللغات كالتركية والإنجليزية والفارسية .

على أن هناك عشرات من مؤلفاته الأخرى باللغة الأردنية، لم يذكر عنوانها ..
ومحاضرات عدّة نشرت منفردة في كراسات تداولهاآلاف الأيدي ، ولم تنشر
إليها في هذا الجدول .

ويقول الشيخ أن أحب هذه الكتب إليه هي : « الطريق إلى المدينة »
و « النبوة والأنبياء في القرآن » و آثرها إطلاقاً هي « ماذا خسر العالم بانحطاط
الMuslimين » و « الأركان الأربع » و « الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة
الغربية » .

والحديث عن مؤلفات أبي الحسن لا تغفي فيه الإشارة المجلوبة ، بل يتطلب الوقوف على كل منها بكلمة تحليلية تكشف عن قيمته العلمية والأدبية ، وما ينطوي عليه من خصائص ذلك القلب الحي . إلا أن هذا أمر متعدد في عرض سريع كهذا ، وحسبنا أن نسترعى انتباه القارئ الوعي إلى صيغ العناوين وما توحى به من أبعاد وأعمق .

لما صدرت الطبعة الأولى من كتاب « ماذا خسر العالم .. » سمعت الأخ الأستاذ محمد المبارك يقول في وصفه : « إنه واحد من خير الكتب التي صدرت في هذا القرن » .

وقرأت الكتاب في آناء محاولاً التحرر من إطراه الأستاذ المبارك إياه ، ولكنني لم أستطع ذلك لأنني لم أجده تعبيراً أكثر إنصافاً للكتاب من تلك الكلمة .

وأشهد لقد أعدت قراءة هذا السفر النفيس عدداً من المرات ، بين قراءة كلية وأخرى جزئية ، ولا أزال أحس عطشاً نحوه . وقد أثبتت طباعته الاثنين عشرة حتى الآن أنه جدير بكل إطراه يستحقه عمل عبقري ، وحسبه تقديرأ ما ظفر به من أقلام كبار العلماء كأحمد أمين ، وأحمد الشرباصي ، ومحمد يوسف موسى ، والشهيد سيد قطب .

وإني لأعتبر هذا الكتاب أنموذجاً لعقلانية الشيخ ، فقد جمع بين التاريخ والفقه والبلاغة والنقد والتحليل ، في انسجام تام بين عناصره جميعاً .

وإن القارئ المتدارك ليظل من خلال الكتاب على مواكب البشرية تتوالى نحو غايتها كالسيول الدافقة في طريقها نحو المصب ، وقد اختفت بها السبل ، فسبيل يتجذر على غير هدى فيدمر كل ما يمر به ، ثم يتلاشى في أعمق الحيط . وآخر يتدهوى في نظام على غاية من الدقة والعظمة ، فيتشيع الخير والخصب والجمال في كل بقعة تعرضه .

إنها حركة الإنسانية في اضطراها بين الخير والشر ، بين الصراط المشرق بنور الوحي ، والمأمة الضائعات في ظلمات المغاهيليات . بين القيادة النبوية العاشرة الراشدة ، والقادات الإبليسية الطاغية الحاقدة .

وعلى ضوء هذا المنهج يحسن النظر إلى بقية المنسنة المقضلة من أسفاره ، مع التذكير بأنني لا أجد تعليلًا لإيشارته إليها على سائر كتبه سوى العلاقة النفسية ، التي كثيراً ما تربط بين المشيء وأثره لمناسة لا يكاد يذكرها .

السبيل إلى الافتراض :

و حول مستقبل الجيل الإسلامي و مهمة علماء الإسلام نحوه ، جمع الشيخ في الإجابة بين السؤالين ١١ و ١٢ على النحو التالي :

يقول فضيلته : إن الجيل الإسلامي الجديد سواء في بلادنا - الهند - أو سواها من وطن الإسلام ، يمر بمرحلة انتقالية على غاية من الأهمية .

لقد تجرب هذا الجيل مرارة الأفكار الأجنبية ، وعاش في ظل نظم الحكم غير الإسلامي . ولا يختلف بعضه عن بعض في أي قطر وآخر ، لأن هذه النظم في جميع البلدان تستمد جذورها من الحضارة الغربية ، فهي على منوال واحد . لكن الصورة اليوم تختلف عما كانت عليه في الماضي . إن تطبيق هذه النظم قد سهل عملية إقناع الجيل الحاضر بضلالها وبكونها بحافة وجوفاء .

لقد أخفقت الحضارة الغربية في إسعاد المسلم كلياً ، وذلك من فضل الله علينا ، إذ كلما عرف العاملون للدعوة الإسلامية كيف ينتهزون هذه الفرصة ، بتوجيه قواهم إلى الكشف عن مساوئ هذه النظم وما تقاسمه الشعوب في ظلها.. كما فعلوا ذلك أحرزوا نجاحاً جديداً لدعوتهم .

والمهم الأهم لقادة الفكر الإسلامي، بعد فضح الحضارة الغربية، أن يحسنوا تعهد قلوب المسلمين ، بإلهاب العاطفة الدينية ، وتعمق الإيمان بالآخرة على

منهج الدعوة الإسلامية الأول، على أن يستخدموا لذلك جميع الوسائل الحديثة والقديمة ، وطرق النشر والتعلم والاستعداد المادي .

ويقول الشيخ : من أجل تحقيق هذا الهدف لا مندوحة عن إعداد الكتب المقيدة في أسلوب عصري ، وتربيه الشباب الروحية بتوطيد الصلة بينهم وبين الروابطين ، وتضييق الفجوة بين الإسلام وغير المسلمين ، وذلك بتتنظيم اللقاءات معهم ، وتزويدهم بما يجهلونه من حقائق الإسلام .

ويختم فضيلته توصياته الرشيدة بقوله : إن القرآن العظيم وسيرة محمد ﷺ ، قوتان في وسعها أن تشعلان في العالم الإسلامي نار الحماسة والإيمان ، وتحدثنـا في كل وقت ثورة مظفرة على العصر الجاهلي ، وتجعلـا من أمـة مسلمة مخزولة أمـة فتـية مائـجة بالحياة والحماسة والغيرـة .

وفي هذه الخطوط المركزة خلاصة عميقة الغور تحمل ضربـاً من تجـارب السيد أبي الحسن في دراسة الواقع الإسلامي ، وطرق معالجته وتصحيـحـه .

لكن .. من هذه العقبـات !

إنـ هـا هـنا نـقدـاً حـادـاً لـلـحضـارةـ الـغـربـيـةـ ، الـقـيـ أـفـسـدـتـ الضـمـيرـ الإـنـسـانـيـ ، فـجـنـتـ عـلـىـ الإـنـسـانـ بـعـامـةـ وـالـمـسـلـمـ بـخـاصـةـ ، وـهـيـ نـظـرـةـ ثـابـتـةـ فـيـ أـفـكـارـ الشـيـخـ لـاـ يـنـفـكـ يـعـرـضـ لـهـاـ فـيـ كـلـ مـاـ يـؤـلـفـ وـيـحـاضـرـ . وـبـذـلـكـ يـلـتـقـيـ مـعـ كـبـارـ مـفـكـريـ الإـسـلـامـ وـالـغـربـ الـمـاعـصـرـينـ ، كـلـمـرـحـومـ مـحـمـدـ إـقـبـالـ ، وـالـشـهـيدـ سـيـدـ قـطـبـ ، وـأـخـيـهـ مـحـمـدـ ، وـمـحـمـدـ مـحـمـدـ حـسـيـنـ ، وـمـحـمـدـ الـبـهـيـ ، وـأـنـورـ الـجـنـدـيـ ، وـأـلـكـسـيـسـ كـارـيلـ . مؤـلـفـ «ـ الإـنـسـانـ ذـلـكـ الـجـهـولـ »ـ وـ...ـ

وـهـاـ هـنـاـ كـذـلـكـ توـكـيدـ عـلـىـ مـفـاسـدـ النـظـمـ الـحاـكـمـةـ فـيـ بـلـادـ الإـسـلـامـ ، بـوـصـفـهـ صـورـآـ مـسـوـخـةـ مـنـ تـلـكـ الـحـضـارـةـ الـمـدـمـرـةـ لـلـرـوـحـ . وـبـرـيـدـ الشـيـخـ مـنـ عـلـمـاءـ الإـسـلـامـ وـمـفـكـريـهـ أـنـ يـسـتـفـيدـوـاـ مـنـ إـخـفـاقـهـاـ الـذـرـيـعـ فـيـ مـعـالـجـةـ قـضـاـيـاـ الـمـسـلـمـيـنـ ، لـإـبـرـازـ عـظـمـةـ النـظـمـ الـاسـلـامـيـةـ ، وـقـدـرـتـهـاـ عـلـىـ تـقـوـيـمـ كـلـ عـوـجـ : وـتـصـحـيـحـ كـلـ فـسـادـ .

وفي سبيل هذه الفيأة يبحث على الانتفاع بكل الوسائل الإعلامية ، وبخاصة الكتاب الذي يعتمد الأساليب العصرية لنشر هذه الحقائق ، إلى جانب التربية الروحية القائمة على الأسوة الحسنة .

ولا جرم أن في هذه التوجيهات الحكيمية ، لو أمكن ترجمتها إلى الواقع ، خيراً كثيراً .. ولكن .. وما آلَمَ «لكن» هذه؟ .. ما السبيل إلى هذه الترجمة؟ .. وما الوسائل الموصولة إليها؟ ..

إن أهم أدوات الإعلام في ظل الحياة الإسلامية تتركز في هذه المنطلقات الأربع : المسجد ، النهج التعليمي ، الكتاب ، السلوك الاجتماعي .

ففي المسجد تبني النفوس المؤمنة على مراقبة الله ، والعناية بشئون عباده .

وبالنهج الإسلامي في التعليم يتكون اليقين بقداسة العلم ، على أنه النور الذي يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام .

ثم يأتي الكتاب الإسلامي تفصيلاً لهذه المبادئ وإيضاً لحقائقها .. ومن هذا وذاك يتكون السلوك المثالى الذي يميز مجتمع الإسلام .

والأربع المنطلقات هذه قد ارتفع عنها سلطان الإسلام في معظم أقطاره . لأن النظم الطاغية قد فرضت رقابتها عليها جميعاً ، فليس خطيب المسجد أرنى يعلن كلمة الله إلا ملفوفة بألف غشاء .. وكثيراً ما يكره على تردید أفكار الطواغيت أنفسهم ، وقد يعرض نفسه للعزل والسجن ، بل والإحراق حياً ، إذا جرؤ على الاشارة إلى حكم الله في قوانينهم - كما حدث في الصومال منذ مدة - ولم يبق للتفكير الإسلامي أي صلة بنهج التعليم ، لأنه أخضع للأيدي الملعنة أو المضللة تعبيت به كيف شاء ، وإذا استبقيت للإسلام فيه من أمر فلتعمويه على البسطاء ، ولا يرازه في مركز الضعف بإذاء الموارد الأخرى التي استغرقت معظم المنهج ، وفيها الكثير مما يصادم حقائقه البدوية .

وأي كتاب إسلامي يتاح له الظهور في مثل هذه المباءات المغلقة ، إلا أن يحمل من مسوغات الظهور ما يقصد الظهور !

ولا حاجة للإسهاب في وصف المجتمع الذي يرزح تحت هذه الكوابيس ، بعد أن فسّدت عناصر تكوينه جيّعاً .

ذلك هو واقع المسلمين في كل مكان إلا من رحم الله .. ولا بد لنا من ملاحظته في كل ما نصف له من علاج .
وكلمة أخرى في شأن الكتاب .

من فضل الله على القلم المؤمن أنه لا يزال قادرًا على التصريح ولو ببعض الحق ، وفي بعض المواطن .. إلا أن في مقدمة العقبات التي تواجهه قلة القراء الذين يعنيهم أمره .

لقد سلّكنا الطريق إلى مكافحة الأمية ، وكدنا نفرق البلاد الإسلامية بالمدارس على اختلاف أقسامها ، وبذلك كثُر الذين يحسّنون القراءة . ولكن حظ الكتاب الإسلامي من هؤلاء القراء ظل قليلاً محدوداً، لأن التوجيه المدرسي والاعلامي قد سبق إلى عقله فصرفه إلى الترهات ، فما لبث أن فقد القدرة على استساغة الحقائق .. ثم جاءت الدعایات الساذجة ، التي يتّمكّن لاشاعتھا عن حسن نية كتاب مسلمون ، ليوهموا بقيمة القراء أن ميدان النشر خال من الأدب الإسلامي والفكر الإسلامي ، فلا قصة إسلامية ، ولا شعر إسلامي ...
ولا من يحزنون !

أجل ... إن هذا هو واقع المسلمين .. وتلك هي الفجوات التي تفترض سبيل المصلحين .

فمن لنا بإزالة هذه العقبات ؟

وما السبيل إلى تحقيق هذه المقترفات ؟! ..

في التربية والتعليم :

والذي أعلمه من أفكار الشيخ ، ومن خلال الأحاديث الخاصة التي يتبعها لنا لقاوه في المناسبات الإسلامية ، أن جوابه على تسؤالنا الآنف يكاد ينحصر في الناحية التربوية .. ذلك لأنه شديد التركيز على هذا الجانب في معظم أعماله الفكرية ، فهو بنظره المعلم الأم في تكوين الجيل الصالح لإقامة المجتمع الصالح . ونظرة مستوعبة إلى أحاديثه الكثيرة في هذا الموضوع كافية لاستبانته هذا الواقع ، ولامداد الباحث بما يكاد يؤلف منهاجاً متكاملاً للتربية والتعلم كما يريده أبو الحسن ، بل كما يتراءى له في ضوء الإسلام ، ومن خلال تجاربه العميقه في هذا الميدان .

وبين يدي الآن صورة المحاضرة التي ألقاها في مهرجان الندوة—٩٥/١٠/٢٦ هـ بعنوان «أهمية نظام التربية والتعليم في الأقطار الإسلامية ..» ومنها أنقل للقارئ ، الفقرات التالية :

متابع السوم :

يتحدث الشيخ عن عمل المستشارين الأجانب في نظم التعليم المفروضة على العالم الإسلامي ، فيقول عن أصحاب السلطان: إنهم «حكّموا في تحطيط برامجهم التعليمية ومؤسساتهم العلمية الإلخachiين أو المستشارين من البلاد الأجنبية ، ولم يستوردوا منها القرارات الدراسية فحسب ، بل النظارات التعليمية والتصورات التربوية ، وأرسلوا البعثات إلى الخارج لتنشأ في أحضان المربين الغربيين والأساتذة الأجانب ، ثم أطلقوا أيديهم ومنحوهم كل حرية في تحطيط البرامج وسياسة التعليم .. فكانت النتيجة وجود طبقة مضطربة العقائد والأفكار والسير والأخلاق ، أحسن أحوالها أن تكون مذبذبة بين الفكرة الغربية وال فكرة الإسلامية ، وإلا فهي في أكثر الأحيان تنسلخ من كل ما يدين به مجتمعها وأمتها » .

التربية لدعم العقيدة :

وينقل هنا عن (دون آدامس) في أمر هؤلاء الموجهين طرفته التالية : « زعموا أن فيضانًا قد اجتاح بعض الأماكن ، وكان هناك قرد وسمكة ، فاما القرد فقد استفاد من سوابق تجاربه فسلق شجرة ونجا ، ثم وقع بصره على السمكة تكافح التيار فأشفق عليها ، وحملها إلى الشاطئ وهو يظن أنه ينقذها ، فكان في ذلك القضاء عليها ».

ويعقب على ذلك بقوله : « إن عملية التربية في أمة أو بلاد ليست بضاعة تصدر إلى الخارج ، أو تستورد إلى الداخل ، كالصناعات أو المواد الخام ، أو الحاجيات أو المخترعات التي لا تختص ببلد دون بلد ، وإنما هي لباس يفصل على قامة هذه الشعوب ، وملامحها القومية وتقاليدها الموروثة ، وآدابها المفضلة وأهدافها التي تعيش لها وتموت في سبيلها ، وأن التربية ليست إلا وسيلة راقية مهنية لدعم العقيدة التي يؤمن بها شعب أو بلد ، وتغذيتها بالاقتناع الفكري القائم على الثقة والاعتزاز .. » (١) .

وعلى الرغم من ثقته التامة بصحة هذه الأفكار لم يرض إلا أن يؤيدها بآفاقات أساطير الخبراء في هذا الشأن ، من أمير كين وبريطانيين وحق الشيوخين ، مما يؤكد أن ارتباط التربية والتعليم بقومات الأمم قضية لا خلاف عليها ، بل هي القاعدة الأساسية في بنائها عند كل أمة ت يريد لنفسها البقاء في معركة الحياة .. وما دام الأمر كذلك فاحق الأمم بالاستقلال في هذا الميدان هي الامة التي حملت أمانة الله إلى البشرية ، وبدينها الخالد الكامل ختمت رسالات السماء إلى الأرض ، فلا سبيل لها إلى أداء هذه المهمة إلا عن طريق استمساكها بالتميز ، الذي يحفظ لها أصالتها سليمة من كل تبع أو تبعية أو تقليد . ذلك هو المنطلق الرئيسي الذي عنه يصدر الشيخ في كل ما يتناوله من شؤون التعليم منهجاً وأسلوباً وغاية ، ولا جرم أن لوسطه الندوى إيحاءه الفعال

(١) صفحة ١٠ و ١٢ من المحاضرة .

في هذا الإتجاه، بما كان لندوة العلماء من أثر ضخم في إحياء هذه المثل وإخراجها من حيز النظر إلى مجال التطبيق .

تجربة رائدة :

ويصف أبو الحسن هذه المؤسسة فيقول : أنها « تمثل فصلاً من أروع الفصول في تاريخ الوعي الإسلامي ». إذ كان قيامها - ١٣١١هـ - لغرض واحد هو إنقاذ الكيان الإسلامي من عملية التدمير التي شنها (دعوة التغريب والردة الفكرية والحضاروية من المسلمين والقوميين وغيرهم)^(١) .

والمتبعون لأعمال هذه المؤسسة ، والمطلعون على نشاطها الواسع في خدمة الفكر والخلق والعربيّة ، يؤيدون أبو الحسن في ما ذهب إليه من تقديرها . ولا أذيع سراً إذا قلت إنني أحدهم ، فعن طريق معرفتي بمناهجها ، وصلتني بخريجتها الملتحقين بالجامعة الإسلامية ، أدركت عظم المهمة التي تنهض بها في خدمة الإسلام . (إن هؤلاء الفقيه في مقدمة طلاب العالم الإسلامي التزاماً لأدب الإسلام ، ورغبة في العلم ، وتقديراً لمدرسيهم ، وتقديساً للفة القرآن ، التي لا يكاد يضاهيهم في سلامه النطقي بها عربي من نوابع الطلاب .

إنها لتجربة رائدة نهضت بها تلك المؤسسة ، فقدمت للعالم الإسلامي أنموذجاً للتربية والتعليم يستحق الدراسة ، ويكتبه أن يقيم لدعوة الإصلاح معالماً على الطريق ذات دلالات لا تتذكر .

ولقد حفلت مناهج الندوة بكل جديد مفيد من المواد العصرية ، إلى جانب المقررات الإسلامية الضابطة ، مع مراعاة الاحتياطات النفسية لطالب العلم . إلا أن عامل التفوق في عملها هو دستورها التربوي ، الذي جمع بين التعليم والتطبيق على أفضل الوجوه . وأن في خريجتها ، الذين تسنموا أرفع المنازل بين أساطين العلم في العالم الإسلامي كله ، لأبرز الأدلة على أننا منها تلقأه واحد من أنجح المشروعات التعليمية في هذا العصر^(١) .

(١) من بحث قدمناه إلى المؤتمر العالمي الأول للتعلم الإسلامي المنعقد في مكة المكرمة - رئيس الآخر ١٣٩٧هـ .

تقدير وحب :

ولا حاجة إلى التذكير بأن فضيلة الشيخ أحد ثمرات هذه المؤسسة المباركة ، وقد شاء الله أن ينتهي إليه لواؤها ، فيتابع طريق أسلافه في دفعها إلى الأعلى يوماً بعد يوم . وحسبه من ذلك وهذا ثروة لا تقوم من الخبرات الحية ، التي تقدّه بكل سديد من الرأي في مجال التعليم الإسلامي . ولا عجب بعد ذلك أن يحظى هذا المفكر العملاق بكل التقدير الذي تحفه به أوساط العلية من مثقفي العالم الإسلامي ، حتى ليجمعون على تقديره للكلام باسمهم في أكبر المؤتمرات .

ثم لا غرو أن ينال هذا (العلم) الممتاز مثل الحب الذي لسته من طلابه نحوه ، حتى ليتسابقون إلى خدمته في سعادة لا توصف ، وحتى ليكون وقع الألم في أعينهم أخف عليهم من أن يلم به أي أذى منها يكن قليلاً .

وذلك بعض فضل الله عليه في الدنيا ، ولآخرة أكبر درجات – إن شاء الله – وأعظم تقضيأً .